محاضرة (نظريات الاتصال)
المرحلة الثانية
إعداد: م . د حسين مراد

مقدمة:

نظريات اتصال

هناك نظرية تقول أن الحضارة الإنسانية الحديثة بدأت تتشكل منذ قرابة خمسين ألف عام حين خرج الانسان من أفريقيا واستوطن منطقة الشرق الأوسط ثم انتشر من هذه الرقعة إلة باقي بقاع الأرض، فإذا ما قارنا ذلك ببداية تطوير أقدم وسائل الاتصال، الا وهي المعدادات السومرية التي ترجع إلى عام ٨٠٠٠ ق.م، لأدركنا أن الإنسان القديم انشغل بأمور الحياة من رعي وصيد وزرع فترة لا تقل عن أربعين ألف سنة قبل أن يستوطن في تجمعات بشرية مكنته من تطوير وسائل الاتصال، بعد أن أدرك الحاجة الماسة لها، فكان تراثه قبل ايجاد الأبجدية شفويا لم يدون في معظمه وتعد مستوطنة (عين (غزال) التي أقيمت قبل عشرة آلاف سنة شرقي مدينة عمان عاصمة الأردن إنموذجا لتجمع بشري قديم، وجدت فيه تماثيل نصفية برأسين، لكن لم يعثر فيه على نصوص مكتوبة. ودلالة هذا أن العصر الشفوي قد امتد زمنا طويلا لم تسجل فيه معلومات دقيقة عن إنجازات حققها الإنسان، فنشأ لذلك (علم الآثار الذي يقوم على تحليل اللقى الأثرية لمحاولة فهم ما جرى خلال العصر الشفوي.

من جانب آخر، فإن أول ما يجمع عليه علماء الاجتماع والإعلام والفلسفة هو عد الاتصال في أساس تكوين المجتمع الذي قام على قاعدة من العلاقة الجدلية التي نشأت بين الانسان الأول وبين محيطه المادي، ومن ثم الروحي، أي على قاعدة علاقته الدائمة مع (الآخر) سواء كان إلها أم حيوانا أم أشياء لها علاقة بالطبيعة.

لقد كان الإنسان يعيش في عزلة عن الآخرين من بني جنسه حتى بدأت تتولد حاجة كانت بداية غرائزية وغير واعية وانتهت إلى أن صارت حاجة اجتماعية مكتسبة، واعية وهادفة. وأن الصراع من أجل البقاء هو بالطبع الذي أيقظ الحاجة لديه ودفع به بالغريزة أولا، وبالوعي المكتسب ثانيا، إلى الاتصال بأبناء جنسه من أجل التجمع والتكاتف والتعاون في السراء والضراء داخل وحدة بشرية بدأت كجماعة صغيرة غير منظمة، لا تقسيم للعمل فيها، ثم أخذت تكبر وتكبر مع الزمن لتصبح أكثر تنظيما ولتشكل لاحقا مجتمعا كبيرا يمتاز بالتنظيم الدقيق وبتقسيم متوازن للعمل فيه.

منذ أقدم العصور أدرك الانسان، وربما منذ اللحظات الأولى لبداية الحياة الاجتماعية أهمية الاتصال بالنسبة له كفرد يرغب في التعبير عن نفسه، أو عند انخراطه مع الآخرين لتبادل الآراء والأفكار معهم، فكان حافزا قويا لتطوير أدوات الاتصال.. فبعد أن طور الانسان اللغة كنظام من الرموز يمثل الأشياء والأفكار ويعبر عنها، تصدى لتدوين اللغة فاخترع حروف الكتابة التي أتاحت له مجال الاحتفاظ بالمعلومات. وقد كانت البدايات متواضعة، بدأت الكتابة أولا على الحجر وألواح الطين والخشب والعظام وسعف النخيل، إلى أن اخترع الإنسان وسائل أرقى مثل الجلود والقرطاس المصنوع من ورق البردي، حتى اختراع الورق ثم الكتابة الرقمية في العصر الحديث.

لقد استغرقت مهمة تطوير الاتصال ووسائله آلاف السنين، استطاع الإنسان خلالها تطوير طرائق أفضل لتدوين المعلومات واختزانها وحفظها للأجيال المتعاقبة كما استطاعت الشعوب المختلفة تبادل المعارف، فنجم عن ذلك إثراء للحضارة الانسانية برمتها، وكانت المحصلة النهائية لذلك ان المعرفة لم تعد حكرا على فئة أو طبقة أو شعب من الشعوب، بل صارت في متناول جميع الناس. وقد بقي انتشار المعرفة محدودا وعلى نطاق ضيق نسبيا حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، حين ثم اختراع المطبعة، فكان ذلك بداية عصر جديد أطلق عليه تسمية (عصر الاتصال الجماهيري)، تمييزا له عن عصر الكتابة الذي سبقه وشهد العصر الجديد انتشار المعرفة على نطاق واسع، متمثلا في شيوع الكتب والنشرات والصحف والمجلات في البلدان كافة. وقاد تفجر المعرفة الى قيام حركات اجتماعية واصلاحية كان من نتائجها ظهور القوميات والدول، وتسارع عجلة الانتاج، وتوجه الانسان نحو البحث والتخصص.. ونجم عن ذلك تحقيق مكاسب اجتماعية وسياسية وتحسن في ظروف العيش والتفكير.

وان سعي الانسان الدائب لتطوير مهاراته الاتصالية قاده لاختراع اجهزة جديدة قادرة على نقل الرموز عبر الأثير مباشرة. وكان اختراع التلغراف في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي مقدمة لبداية عصر الاتصال الإلكتروني، الذي ظهرت فيه تقانة اتصالية غاية في الدقة
والفاعلية.
والسمة الرئيسة التي تطبع العصر الحالي بفضل تطور صناعة الالكترونيات هي أنه (عصر) الاتصال. ويشار اصطلاحا إلى الصناعة المتقدمة التي حملت على اكتافها بتكنولوجيا الاتصال. فإذا كانت سمة العصر هي هذه الصناعة المتسارعة التطور التي ميزت عصرنا الحالي عن عصور أخرى سابقة، فإنها قادت لظهور مجتمعات المعلومات.

تطور الاتصال عبر العصور

عرف الإنسان البدائي الاتصال والإعلام بطريقة بدائية خاصة بعد انتقاله إلى الحياة الاجتماعية، إذ كان افراد القبائل البدائية يقومون بوظيفة الحراس فيصدون إلى إخبار أفراد قبيلتهم بالأخطار المحدقة بهم، كان يبلغونهم عن قبيلة معادية تعمل لمهاجمتهم، أو يخبرونهم بوجود قطيع من الحيوانات لاصطياده، فكانوا هؤلاء الحراس أشبه ما يكونوا بصفارات إنذار للأخطار وغيرها. وكان مجلس القبيلة يتخذ القرارات المتعلقة بإحتياجات القبيلة وسياستها، ويسهر على تنفيذها، لذا كانوا يتخذون الرسل لتبليغ الأوامر والمعلومات الأفراد قبيلتهم أو للقبائل المجاورة. وتعمد القبيلة إلى نقل تراثها الثقافي من جيل إلى جيل، فيقوم الآباء بتعليم الجيل الجديد العادات والتقاليد، فيعلم الآباء الابناء كيفية الاصطياد ومحاربة الأعداء وإعداد أدوات القتال.

ا ـ تطور الاتصال في العصور القديمة:

١ـ الاتصال في حضارة بلاد ما بين النهرين العراق القديم)

نشأت ممالك قديمة متعددة في بلاد ما بين النهرين سومرية وأكدية وبابلية وأشورية وكانت الكتابة التصويرية هي المرحلة الأولى من تطور الكتابة في منطقة بلاد ما بين النهرين وتعد من أقدم أشكال الكتابة في التاريخ، ظهرت في حضارة السومريين، وكانت تستخدم رموزا تصويرية بسيطة تمثل أشخاصا أو حيوانات أو أشياء. وقد استخدم السومريون الطين الناشئ عن ترسبات السبول لصنع الألواح المناسبة للكتابة. وعند إعداد اللوح الطيني كان لا بد من عين الطين الناعم وصنعه على شكل قوالب، ولأن اللوح كان يجف بسرعة، فقد كان لا بد من الكتابة عليه بسرعة ودقة. واستعملت للكتابة على الألواح الطينية قطعة خشب مدينة الرأس تشبه الأقلام ولأن الكتابة بهذه الصورة كانت تؤدي إلى تمدد اللوح، دفع ذلك الإنسان إلى ابتداع أساليب أكثر استجابة لحاجاته، فعمل على صنع مرقم أداة) مثلث الرأس من القصب يحجم القلم العادي، وكان ذلك في النصف الثاني من الأف الثالث ق.م.، وحين كان رأس القلم يغرز في الطين، يتشكل رسم يشبه المسمار على اللوح، ونجم عن هذه العملية اختفاء الكتابة التصويرية لتحل محلها الكتابة المسمارية. كذلك وجد علماء الآثار في العراق نشرات ترجع الى سنة ١٨٠٠ ق.م. ترشد الزراع إلى كيفية بذر محاصيلهم وريها وعلاجها من الآفات، وتشبه هذه النشرات إلى حد كبير النشرات التي توجهها وزارات الزراعة إلى المزارعين في الدول المتقدمة ويؤكد أحد المؤرخين أنه كان للبابليين صحف تسجل الحوادث يوميا وتوجه الارشادات.

ـ الاتصال في حضارة وادي النيل

طور المصريون القدماء الكتابة بالخط الهيروغليفي والهيروغليفية كلمة يونانية تعني الكتابة المقدسة المنقوشة والهيروغليفية هي نظام للكتابة يتألف من مجموعة من الرموز والصور التي تمثل أصواتا أو أفكارا، وكانت تحفر هذه النقوش بالإزميل على النصب الحجرية كجدران المعابد والتماثيل والمقابر. وقد مرت الكتابة المصرية الهيروغليفية بثلاث مراحل هي: مرحلة الكتابة التصويرية حيث تمثل الصور الرمزية المكتوبة أفكارا أو أشياء بعينها (صورة) النسر تعني النسر). ومرحلة الكتابة الرمزية وهنا تستخدم الرموز النقل معنى لفكرة ما (صورة النسر برأس إنسان تعني الروح)، ثم مرحلة الكتابة شبه الصوتية حيث تمثل الرموز أصوات معينة، مثل الحروف في الكتابة الحديثة.

وتعد الهيروغليفية من أجمل الخطوط التي طورها الإنسان المصري القديم، غير أن المشكلة التي واجهت الهيروغليفية هي كثرة رموزها، فوصل عددها إلى أكثر من خمسة آلاف ومزا، وقيل أيضا ما يقارب ستة آلاف رمزاً، الأمر الذي حد من انتشارها وأدى لاحتكارها من طبقة محددة من الكهنة والكتبة. وكانت الكتابة عمودية ثم صارت لاحقا أفقية، من اليمين إلى الشمال. ولقد ترك استخدام الحجارة كوسيلة اتصال أثرا عميقا على الكتابة الهيروغليفية، وربما كان السبب الذي حال دون تطورها إلى أبجدية صوتية بعد إدخال الفرشاة والقرطاس. إذ استبدلت أساليب النقش القديمة على البازلت والغرانيت والصخور، ليحل محلها القلم والريشة والخبر والقرطاس المصنوع من ورق البردي، وكانت هذه نقلة مهمة في تاريخ وسائل الاتصال.

ومع أن الاتصال أول ظهوره كان يلبي حاجة دينية لدى الإنسان بشكل أساس، غير أن حاجات جديدة ظهرت مع بدء تكون الأنظمة السياسية التي مدت نفوذها إلى أقاليم واسعة، فقراعة مصر كانوا ينشرون أوامرهم إلى أقاصي الأرض التي يحكمونها، فكانوا يكتبون مراسيمهم ويرسلونها إلى كل مكان، كما كانوا يأمرون بحفر هذه المراسيم على جدران المعابد ليقرأها الناس ويكونوا على علم بها، كما كتبت ورسمت على هذه الجدران اخبار انتصارات الفراعنة والأوامر الملكية وغيرها.

الاتصال في الحضارة الإغريقية تتميز الحضارة اليونانية بأنها أم الحضارات في الفكر والفلسفة. وقد تأثر العرب بها وحفظوا تراثها، كما تأثر بها الغرب أيضا.

وكما هو الحال عند العراقيين القدماء والفراعنة المصريين في محاولاتهم المبكرة في الاتصال، كان كذلك الحال عند اليونانيين وفي روما والصين وعند العرب بل لم يقتصر الإعلام أو الاتصال على نشر المراسيم وإذاعتها، وإنما تعداه إلى الاخبار العسكرية والرياضية والمسرحيات وثمة اتصال مباشر كان عند الاغريق، وهو إذاعة الأخبار في الميادين العامة على الجماهير المجتمعة فيها. لقد عرف اليونانيون الخطابة والجدل والحوار كوسائل اتصال ذات تأثير كبير في كثير من الناس، وفي عهد الاسكندر المقدوني اعتمد الشعراء والخطباء والكتاب والمفكرين، بل واصطحبهم معه في حروبه، مما دل على مدى اهتمامه بالإعلام والاتصال وأساليبه ووسائله المؤثرة بسكان البلاد المغزوة.

كتب اليونانيون أول الأمر على الواح خشبية مطلية بالشمع، وخطوا عليها كلماتهم بمرقم مصنوع من العاج أو الحديد، وكانوا إذا ما أرادوا محي اللوح وتنظيفه عمدوا إلى تذويب الشمع وإعادة الكتابة عليه من جديد. واستعملت هذه الألواح في غرف الدراسة وأحيانا لكتابة الملاحظات، أما القراطيس والرق الجلد الرقيق، فخطوا عليها الوثائق والكتب.

وكانت الملحمة الشعرية تحتل مكانة مرموقة في الوسط الأرستقراطي، وتعد قوة عقلانية كبيرة، لكن القدرة على تقليدها سيما من قبل الشعراء الجوالين، استدعى إدخال بعض التغيير

فيها، فظهر الشعر الشعبي الشبيه بالملحمة الهومرية (*). وقد ظهرت في اليونان أجناس جديدة أنت إلى أحداث التغيير الاجتماعي الذي عكس فعالية العهد الشفوي وقوته ففي أشعار هوميروس، أخذت الأساطير المقدسة من الحضارات السابقة، وصارت بشرية الطابع، وتم دمجها في شعر البطولة. وأصبحت الآلهة ذات صفات بشرية، ودخلت طقوس السحر في عبادتها واحتل (ريوس) قمة الهرم كبيرا للآلهة. ومع قيام الفلاسفة بالبحث عن الحقيقة المجردة، تم فصل الأسطورة عن العلم.

الاتصال في العصر الروماني

احتلت الخطابة مكانة مرموقة في الحياة الاجتماعية عند الرومان، وكان رائدها الخطيب المفوه شيشرون وصارت المسرحيات الساخرة والمأساوية جزءاً من الاحتفالات الرومانية. وبانتشار الكتابة في الامبراطورية الرومانية، صارت الكتب تلبي رغبات القراء في الأمور المتعلقة بالدولة وبالزراعة وبالقانون. ومع رواج تجارة الكتب في روما، كثر الناشرون، وتم تدريب العبيد على أعمال النسخ والقراءة وعمل المكتبات.

ومع تعمق عصر الكتابة، ظهرت الجريدة الحائطية الأولى (الاكتاديورنا)، كما ظهرت (اكتاسنانوس) التي اشتملت على محاضر مجلس الشيوخ في عهد الملك يوليوس قيصر. وقد صار الأباطرة الرومان يعتمدون القوة العسكرية في فرض أنفسهم على رأس السلطة وهو ما يعكس ظهور الحكم المطلق في الإمبراطورية الرومانية في إدارة مركزية امتدت من بريطانيا إلى بلاد ما بين النهرين. وقد كان أحد القياصرة الرومان يعمد إلى إلهاء مواطنيه وصرف أنظارهم عن بعض المشكلات الداخلية والخارجية التي يعانون منها بإشغالهم بالمباريات الرياضية، فكان يحتشد جمهور كبير من الناس في الميادين العامة، ويجري التسابق ركضا المسافات طويلة، وكثيرا ما يصل المتسابق الفائز إلى نهاية السباق لافظا أنفاسه الأخيرة فيسقط صريعا على أرض ميدان السباق. لقد قامت الدولة في روما بنشر الأحداث العامة ثم ألغتها ونشرت بدلا عنها الأحداث اليومية. ويقال أن سيدات روما كن يعجبن إعجابا شديدا بها لأنهن كن يجدن فيها آخر أخبار الفضائح. وكان القيصر يشجع نشر هذا اللون من الأخبار ليحول انتباه المواطنين عن المشكلات التي كانت تواجه السلطة الحاكمة.

وفي صدر العصر الروماني كان هناك نوع من الإعلام وهو رسالة المبشرين المسيحيين الأوائل، وكان نشاط الرسل وأتباعهم في الخروج إلى البلاد والتبشير بالإنجيل إحدى خطوات التطور البالغة الأهمية في تاريخ الاتصال والإعلام، وكان هذا النوع من الإعلام الديني يعد وسيلة هامة للسلام واجتناب الحروب في ذلك الوقت.

الاتصال في الحضارات العربية القديمة:

سجل المؤرخون الذين حفظوا التراث العربي، وتاريخ الحضارات العربية القديمة أن الأعراب استخدموا لغرض الكتابة والتدوين، وسائل وأدوات مأخوذة من البيئة المحيطة بهم. إذ كتبوا ونقشوا على الحجارة والصخور، جريد النحل والكراتيف جذوع النخيل الغليظة) والعظام، واللخاف قطع الحجارة الرقيقة البيضاء، والفخار والجلود بأنواعها: الرق وهو جلد صغار العجول والحملان، والأديم وهو الجلد المدبوغ الأحمر، والقضيم (وهو الجلد الأبيض). وعرف العرب في جنوب الجزيرة العربية صناعة دباغة الجلود التي أخذوها من الفرس في الثلث الأخير من القرن السادس للميلاد.

كما عرف العرب في العصر الشفوي المهارق التي كتبوا عليها المعلقات والمهارق لفظة فارسية معربة تعني الصحيفة المصنوعة من القماش الأبيض المصنوع من الحرير أو القطن أو الكتان. ثم ظهر القماش القباطي نسبة إلى أقباط مصر ولأن القماش كان مكلفاً فقد حل محله

شكراً لحسن ألاصغاء